الدكتور إلياس فرح

# القومية العربية والوحدة في منظور البعث العربي الإشتراكي



# القَوميَّة العَربيَّة وَالوحدَة العَربيَّة مِن منظور البَعث

الدكتور الياس فرح

بغداد 1980

## مقدمة

إن وضع القضية القومية، في صيغة نظرية علمية شمولية، ما يزال هماً من هموم المفكرين العرب المناضلين، منذ انتقلت النهضة العربية المعاصرة، من مرحلة العفوية، إلى مرحلتها الثورية، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

فالمرحلة الجديدة، باتت تتطلب أسلحة نضالية، فكرية، وتنظيمية، وتعبوية، من مستوى جديد ينسجم مع طبيعة التناقضات ومع حجم التحديات التي يواجهها الوطن العربي.

وبالرغم من الشوط الطويل الذي قطعه الفكر العربي في هذا الاتجاه خلال مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فان مسار القضية القومية العربية، الذي يتعرض لشتى المحن في ظل الظروف الراهنة، عاد يطرح من جديد، (الأسئلة المصيرية) ذاتها، التي قصرت الأجوبة النظرية والعملية عن اشباعها، خلال نصف القرن الأخير، على الأقل.

وهذا يعني أن (القومية العربية) لم تستكمل بعد كل وعيها لطبيعة المرحلة التأريخية. وأن (الوحدة العربية)، ما تزال هدفاً يقترب من الحلم، أكثر من التصاقه اليومي الواقعي بحركة الأحداث، وتعبيره المشخص والعملي عن حاجات هذه المرحلة.

لذلك فان البحث في (القومية العربية، والوحدة العربية)، لا يمكن أن يستقل عن ظروف المسيرة العربية الراهنة، ولا عن التحولات السلبية المفجعة التي تنتاب بعض

جوانبها، والتي لا تعبر عن روح النهضة، بل ما تزال تجر ذيول مرحلة التردي والانحطاط، التي شهدتها الأمة العربية بعد اغتيال الحضارة العربية، وسقوط بغداد عام ١٢٥٨ م.

والسؤال الذي طرحه البعث منذ البدء: «كيف تكون النهضة أصيلة ومنسجمة مع حقيقة الأمة، وقادرة على التعبير عن شخصيتها الحضارية؟» ما يزال يشكل، مع الأسئلة التي تطرحها تناقضات المسيرة القومية اليوم، شاغلاً مركزياً في فكر البعث ونضاله.

فقد نشأ البعث كجزء من تيار النهضة العربية، ومن وعي للمرحلة الجديدة التي دخلتها، وللمستوى الذي ينبغي أن ترتفع إليه[1]:

«اذا نظرنا إلى يقظة العرب الحديثة، نجد أن الدور الأول الذي مرت به هذه اليقظة تنطبق عليه صفات التأثر المنفعل السلبي، فكل مظاهر اليقظة، سواء في السياسة أو في الاجتماع أو في الفكر، انما هي رد فعل لما سبقها من حالة الجمود والانحطاط.. ان الذين تتبعوا حركة البعث العربي في الناحية الفكرية على الأقل، يستطيعون أن يلاحظوا منذ بدء الحركة اهتمامنا البالغ بأن نجعل من حركة البعث، الخطوة الايجابية التي يجب أن تأتي بعد الخطوة السلبية».

وقد كان (منهج فكر البعث) دليلاً كاشفاً لصعوبة المرحلة، ولمشاق المسيرة حيث (نزع الأشواك لا قطف الرياحين). فلم يستسلم لنوع من التفاؤلية التأريخية بالرغم من أن[2] (فلسفة البعث) قامت على (الثقة بقدرة الأمة على تحقيق نهضتها).

كما أن ادراك الطبيعة الجدلية لحركة النهضة العربية المعاصرة، قد جنب فكر البعث النظر إلى تأريخ القرن ونصف القرن المنصرمين من زاوية واحدة سلبية. فقد استوعب الوجهين المتكاملين لهذه المسيرة. وأدرك أن تأريخ النكسات والنكبات إنما هو الوجه الآخر لحركة النضوج والاختمار والتطور الصاعد والتقدم المستمر، الذي تدفع الأمة ثمناً نضالياً باهظاً لتوطيده. (فالقومية العربية والوحدة العربية)، هما تعبيران عن وعي الأمة العربية لذاتها وعياً معاصراً. والصعوبات التي تعترض مسيرة النهضة العربية انما هي توكيد للطبيعة الثورية لهذه المرحلة، كما يقول مؤسس البعث الاستاذ ميشيل عفلق[3]:

«إذا وعى العرب طبيعة مرحلتهم حق الوعي، فانهم سيتخلصون من كثير من المخاوف والوساوس ودواعي التردد، ويزدادون ثقة بصحة طريقهم واقداماً فيه».

---

(١) ميشيل عفلق، معركة المصير الواحد، الطبعة ٧ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥)، ص ٣٣.

(٢) المصدر نفسه، في سبيل البعث، الطبعة ٢٠ (بيروت: دار الطليعة، [١٩٧٨])، ص ٣٦.

(٣) المصدر نفسه، معركة المصير الواحد، ص ١٦٤.

وعلى ضوء هذا الادراك للمرحلة الجديدة ، ركز منهج فكر البعث على ضرورة[٤]:

«مقاومة اغراء السهولة، واتقاء خطر التعجيل والتزييف والاكتفاء بالتقدم السطحي والحلول الوسط».

كما أكد على أن[٥]:

«من الطبيعي في هذه المرحلة الصامدة من تاريخ أمتنا العربية أن يتركز انتباهنا على مواطن الضعف والنقص، التي ما زالت تشوب حياتنا القومية، أكثر من تركز هذا الانتباه على ما حققناه حتى الآن من قوة وتقدم».

فالمراجعة الشاملة، والنقد الذاتي، وتحويل النكسات الى منطلق لتصحيح المسيرة. . قد كانت «قواعد منهجية» ثابتة في تفكير البعث ونضاله. لذلك فان البحث في القومية العربية والوحدة العربية، من منظور البعث، انما ينطلق من هذه القواعد المنهجية، التي تستوعب مسار الأفكار والنضال في عالمنا المعاصر. والتي جعلت فكر البعث، على خلاف التيارات الفكرية السياسية التي سبقته، لا يطرح نفسه كمذهب فكري يدعي (النظرية الكاملة)، أو كعقيدة سياسية متبلورة، مغلقة ومتحجرة، أو كنزعة تجريبية (براغماتية) أو (وضعية). . بل يحرص على أن يقدم نفسه[٦] «كفكرة بسيطة، بعيدة عن تعقيد النظريات، لم تنشأ وراء المكاتب، وأنها تدرك دوماً ما يتخللها من ثغرات ونواقص»، فهي في حوار دائم مع نفسها ومع الواقع والتجربة والنضال. وهو فكر مناضل، ولد من المعاناة، حيث التفاؤل بمصير الأمة ينبع من المعايشة لآلام المرحلة[٧]:

«نحن صدرنا من البدء عن فكرة وليست نظرية. اذ انها مستمدة من صميم هذا الشعب العربي».

فالفكرة كانت في البعث جزءاً من العمل النضالي. فهي ليست قائمة في ذاتها، وليست مستقلة عن العمل.

فاذا كانت النهضة العربية تتعرض منذ البدء إلى مؤامرة كبرى، وينمو وعيها من خلال النضال المصيري. فمن الطبيعي أن يكون (الوعي القومي) العربي، ، كما عبّر عنه البعث، في (ايديولوجيته العربية الثورية)، ترجمة صادقة لحاجات تطور (الوجود القومي) باتجاه حل متناقضاته حلاً ثورياً يلغي عوامل الضياع، ويحقق الانسجام المفتقد بين واقع الأمة وحقيقتها. (فالقومية العربية)، كوجود اجتماعي تاريخي حضاري، وكوعي للانتماء

---

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٢.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٥.
(٦) حديث بدر شاكر السياب مع الاستاذ ميشيل عفلق في الجمهورية (العراق)، ٩ آب (أغسطس) ١٩٥٨.
(٧) عفلق، في سبيل البعث، ص ١٧٢.

إلى هذا الوجود، تمتد إلى المرحلة التي مهدت للاسلام كثورة قومية ذات رسالة نقلت (الشعور المبهم بالانتساب إلى أمة واحدة) إلى وعي اقترنت فيه الثورة الروحية (التوحيد) بالثورة القومية (الوحدة)، حيث قامت دولة عربية، وثقافة عربية، وحضارة عربية، من طراز جديد.

وقد جاءت ملامح يقظة الشعور القومي العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر[٨]، بعد انقطاع مع هذا الماضي، دام عدة قرون، وحل خلالها الضياع الشامل إلى درجة من العمق والسعة اختلت معها كل عناصر التوازن الايجابي في الحياة العربية وانطفأت الشعل المضيئة، بعد أن خنق التطور السياسي السلبي الومضات الثقافية المتبقية، فتشجعت السلطة العثمانية والاستعمار الغربي والصهيونية، على المراهنة على المصير العربي، فكانت محاولات التتريك والتقسيم للوطن العربي، وفرنسة الجزائر والمغرب العربي، رهاناً على بقاء الأمة، وأنها قد طويت من التاريخ.

فكانت (القومية العربية) صحوة على عوامل انهاء الوجود العربي، وطمس الهوية القومية. وكان وعيها أشبه برد فعل غريزي ضد خطر الافناء، التقى فيه حدس الجماهير وحسها العام، بوعي المثقف لأبعاد هذا الخطر. لذلك أخذت القومية العربية معنى (الانبعاث)، واقترن فيها الوعي بالنضال والنظرة العلمية بالمنظور الحضاري، وبالموقف الانقلابي. وقد تطور هذا الوعي عبر المجابهة المصيرية للمخطط التآمري الاستعماري والصهيوني، ومن خلال الاحساس الدائم بالوجود القومي المحدد، الذي هزّ الأمة من جديد، ونقلها من حالة كانت شبيهة بحالة فقد التذكر، إلى حالة التنبه والتوتر، ثم حالة الادراك والاستبصار. وقد بقي الفكر القومي يستمد من هذه اليقظة القومية عوامل تطوره وتحرره من المنظور الغربي، ثم انضاجه لمنظوره الحضاري الانبعاثي. متجاوزاً مرحلة الانبهار بالثقافة الغربية وبتجربة أوروبا الحديثة التي برزت خلال القرون الخمسة الأخيرة، التي كانت فيها الحياة العربية قد انزوت في ركن هامشي من حركة التاريخ المعاصر.

فالفكر القومي (المحافظ)، الذي أعجب بتجربة الاصلاح الديني، أو بالفكر الليبرالي، أو بالحركة النازية والفاشية. . . والفكر (التقدمي)، الذي تأثر بنظريات التطور وبالمفاهيم الثورية، وبالنزعة العلمانية، وبفكرة التحديث، وبالفكر الاشتراكي. . . و «الطبقة السياسية» «التي امتزجت ثقافتها القومية بمطامحها الطبقية. قد مثلت جميعها مراحل

---

(٨) جوزيف حجار، اوروبا ومصير الشرق العربي: حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة، مراجعة حسن فخر [بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [١٩٧٦]]، ص ٨٥.

انتقال وتطور باتجاه تعميق معنى النهضة العربية، وتهيئة المرتكزات الفكرية والنضالية لانتقالها من المرحلة التي تطغى عليها العفوية، إلى مرحلة ثورية جديدة.

وقد جاءت ظروف التحول الكبرى في حياة العالم، بعد اشتعال الحرب العالمية الثانية، لتفتح آفاقاً جديدة أمام رؤيا العرب، ونظرتهم إلى أمتهم، وإلى موقعها في عملية التحول الكبرى لخارطة العالم السياسية، ونظمه الاجتماعية وتياراته الفكرية...

وقد كان استيعاب فكر البعث للتراث القومي، استيعاباً حياً، واطلاعه الشامل على التيارات الفكرية المعاصرة، ومعايشته لحركة النهضة العربية من داخلها، عاملاً أساسياً في ادراك المسافة التي راحت تتسع وتتحول إلى تناقض بين مستوى العمل القومي وبين متطلبات المرحلة الجديدة التي دخلتها النهضة العربية. وبين الاشكال السطحية والمقلدة والسلفية والتجزيئية للوعي القومي، من جهة، وبين مسيرة النضال الوطني والقومي الجماهيرية، من جهة أخرى. فكانت حركة البعث تعبيراً عن حاجة النضال القومي إلى الارتفاع إلى مستوى جديد من النظرة العلمية الثورية إلى الأمة ونهضتها ومسيرتها، ومن العمل القومي المستند إلى تنظيم قومي جماهيري، مستوعب للدور التاريخي للجماهير العربية في المرحلة المصيرية التي تدخلها النهضة العربية، أي الحاجة إلى انضاج مفهوم جديد (للقومية العربية والوحدة العربية) يجدد اللقاء الذي انقطع، بين الحس العام النضالي الجماهيري العربي، وبين الفكر الطليعي لحركة النهضة.

وقد كان تطور الفكر القومي الوحدوي، بعد الحرب العالمية الثانية، صراعاً متصاعداً، بين الفكرة القومية في مستواها الجديد، وبين أنواع التشويه، المتعددة الاشكال والمصادر.

فالمؤامرة على الأمة تكبر وتشتد. والصراع بين الروح الانقلابية الجديدة ووعيها الثوري، وبين رواسب الانحطاط والمرحلة الاستعمارية القديمة والمرحلة الامبريالية-الصهيونية الجديدة، والأساليب المبتكرة لتحطيم ثقة الجماهير العربية بنفسها. كل ذلك كان لا بد أن يضع الفكر القومي الوحدوي ومرتكزاته النضالية أمام امتحان يومي.

فقد أصبح هذا الفكر سلاحاً مباشراً في معركة الأمة. لذلك كان من الطبيعي أن تحشد في وجهه، النظريات المبررة للتجزئة والمدافعة عنها، والافكار المعبّرة عن مصالح طبقية أو طائفية أو اقليمية ضيقة، وأسلحة المنطق المتخلف عن روح العصر، والأدوار العابرة التي تحاول أن تصادر دور الجماهير. وأن تجد هذه التيارات المتخلفة عن مستوى المعركة القومية سنداً لها في محاولة تشويهها للفكر القومي الجديد، وفي حربها معه،

ايديولوجيات وقوى عالمية، باتت تشعر بخطر هذا الفكر، على مصالحها ومخططاتها ووجودها في المنطقة العربية.

لذلك كان فكر البعث يستشعر الحاجة الدائمة إلى تحصين الفكر القومي الوحدوي بتعزيزه وتعميقه وترسيخ نقاط انطلاقته العلمية الثورية، في وجه عوامل التشويه، سواء على مستوى التنظير أو التطبيق. لأن الدافع الأول لفكر البعث ، والمحرك الأساس له، هو محرك نضالي، ولان قناعة البعث الراسخة هي في أن يكون (النضال) هو المنطلق في تطوير الفكر القومي الوحدوي المعاصر.

(فالقومية العربية والوحدة العربية) هما حقيقتان نضاليتان قبل كل شيء، في هذه المرحلة من حياة الأمة. ففكرهما، ومسيرتهما، لا بد أن يتعرضا إلى أزمة، كلما هبطت الحياة النضالية[٩]:

«ان من طبيعة هذه النهضة العربية الحديثة، أن يكون طريقها شاقاً، وأن تمتحن بين الحين والآخر بالمشاكل الصعبة المعقدة لأنها نهضة هيأت لها قرون طويلة كانت فيها عبقرية الشعب العربي وحيويته مختزنة، وكان لا بد أن تأتي بنهضة أصيلة انسانية، لأنها أتت بعد صبر وانتظار طويلين. ولأنها تأتي من أمة ألفت حمل الرسالة واعتادت أن تنظر إلى الحياة بأنها رسالة. فيجدر بنا اذن أن نتذكر هذه الخاصة لبعثنا الجديد، خاصة الصعوبة والمشقة لكي يكون بعثنا أصيلاً. وعندما نتذكر ذلك، نقبل على الصعوبات بلهفة للقائها لأننا نرى فيها السبيل الذي نريد. أن نحققه. الفرق هو بين أن ننظر إلى العقبات بأنها عقبات وبين أن ننظر إليها بأنها هي الطريق.

كل ذلك لكي يعطي العرب ما يؤهلهم تاريخهم أن يعطوه وما تنتظره البشرية منهم. فهذا الامتحان الجديد لنهضتنا مهما يكن بالغ الخطورة لا يليق إلاّ أن ننظر إليه كحافز على التصحيح للنواقص التي لا تزال في نهضتنا: للاخطاء والسطحية في التفكير، والايمان والضعف في التنظيم..».

فتجديد هذا الفكر هو رهن اذن بالتوتر النضالي الذي تعيشه حركة النهضة العربية المعاصرة، وهي تنتقل إلى مرحلة الثورة الدائمة، وقد وضع منهج فكر البعث نواة عملية التجدد الدائمة في الفكر القومي وفي نظرته إلى (القومية العربية والوحدة العربية).

عندما نظر إلى فكره (كنسق منفتح من التصورات)، وقال عن الصيغة الجديدة التي بلورها هذا الفكر، بأنه[١٠] «لا يعتبرها صيغة نهائية، ولا يعتبرها صيغة كاملة، لأن حياتنا يجب أن تتجدد دوماً وأن تنمو وتتعمق دوماً».

---

(٩) عفلق، في سبيل البعث، ص ٢٨٨.
(١٠) المصدر نفسه، ص ١٩٨.

## البعث والمفهوم الجديد
## للقومية العربية

يشكل البعث جزءا من تيار النهضة العربية، فيه من «الانقطاع والبتر الارادي الواعي»[11] مع المرحلة التي سبقته، بقدر ما فيه من الاتصال بحلقاتها. فقد انطلق البعث في مفهوم (القومية العربية) من نقد للمفاهيم السابقة، كان يتحرى من خلاله، وضع اسس منهجية جديدة للتعامل مع المسألة القومية[12].

«أخشى أن تسف القومية الى المعرفة الذهنية (الشكلية) والبحث الكلامي. كثيرا ما أسمع اسئلة عن تعريف هذه القومية: أهي عنصرية تقوم على الدم، أم روحية تستمد من التاريخ والثقافة المشتركة؟ وهل تنفي الدين ام تفسح له مكانا؟. . وكأني بهم يعلقون ايمانهم بالقومية على درجة التعريف من الصحة والقوة».

الاستاذ ميشيل عفلق مؤسس البعث، يتطلع، من خلال هذه النصوص التي كتبت عام ١٩٤٠ و١٩٤١، الى تحرير البحث في القومية من طغيان الغموض والعاطفية والنظرة التأريخية المجرده من جهة ـحيث تصور (القومية العربية) يجعل منها (قوة معنوية) بعيدة، تستدعي ذكرياتها من الماضي للتعويض عن بؤس الحاضر وضعفه وترديهـ وانقاذها من جهة اخرى من أسر الثقافة الغربية والنزعات والمدارس الفكرية، الفلسفية والاجتماعية التي نشأت في المجتمعات الأوروبية. والتي كانت تتعامل مع (القومية العربية) كمسألة نظرية خالصة.

فالهم الاساسي الذي استحوذ على الخطوات الاولى في تفكير البعث في المسألة القومية، هو هم (منهجي). فالنزعة النقدية الصارمة لطريقة البحث في (القومية العربية) كانت مدخلا لتصحيح المفاهيم السابقة عنها.

كان فكر البعث يدرك بأن جانبا كبيرا من اخطاء التعامل مع المسألة القومية، انما يرجع الى الافتقار الى منهج علمي ثوري، ثم الى عدم تبلور المنظور الحضاري الانبعاثي، للنهضة العربية المعاصرة. لذلك كان تحديد هوية المرحلة التأريخية الراهنة، وتحديد التناقضات الاساسية في المجتمع العربي، واكتشاف وحدة هذه المتناقضات، وتقدير حجم التحديات التي تواجه النهضة العربية. . كل ذلك، كان في مقدمة الجهود الفكرية التي تركز حولها بنيان المفهوم الجديد للقومية العربية في منظور البعث.

---

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٣.

لذلك كان فكر البعث، بهذا الاعتبار، تلبية لحاجات مرحلة جديدة في تطور الفكر القومي العربي المعاصر.

في عام ١٩٤٠ ينطلق المفهوم الجديد للقومية العربية للبعث، من ملاحظة اساسية: وهي أن القومية ليست (نظرية)، بل هي (وجود حي). وأنها من طراز الحقائق البسيطة، البديهية التي يتعايش داخلها الانسان، فلا تطرح نفسها كقضية فكرية مجرده[١٣]:

«قلما يفكر المرء بالاشياء البسيطة.. من ذا يفكر باسمه ووجهه؟ القومية كالاسم الذي يلصق بنا منذ ساعة ولادتنا ومثل قسمات الوجه الذي قدر علينا حتى قبل أن نولد في وراثة ابوينا واجدادنا. القومية للشعب كالاسم للشخص والملامح للوجه. هي قدر محبب. فمن الخطأ ان نحصرها في ساحة محدوده من الوعي، وأن نسجنها في تعريف كما فعل علماء الكلام بالدين قديما».

وهكذا فان (بعث القومية العربية)، ينطلق في فكر البعث، من (نظرة انبعاثية تنقلها من عالم الالفاظ إلى عالم الحقائق النابضة بالحياة. كما في مقالة (في القومية العربية) عام ١٩٤١[١٤]:

«لنهجر اللفظ قليلا. ولنسم الاشياء باسمائها وصفاتها المميزة، فنستبدل بالقومية (العروبة)، وبالدين (الاسلام)، تظهر لنا المسألة تحت ضوء جديد». فالقومية العربية ليست حقيقة مجردة غائبة في الماضي. انها ليست موضوعا للذكرى. بل هي (تذكر حي)[١٥]:

ان النتيجة المنطقية لهذا الموقف المنهجي المبدئي، تتضح في الخمسينات، حيث تميز مقالة (القومية العربية والنظرية القومية) عام ١٩٥٧ بين (القومية العربية) التي تشكل (التعبير المتطور عن هذه الحقيقة، حسب الزمان والظروف). فالقومية العربية حقيقة حية راهنة تمتزج بنضال الجماهير العربية، لذلك فان البحث ينبغي ان يتركز حول (محتوى) هذه القومية[١٦]:

«ان القومية العربية لدى البعث، هي واقع بديهي يفرض نفسه. اما مجال الاختلاف وضرورة النضال فهما في محتوى هذه القومية، هذا المحتوى المتطور الذي يحتاج في كل مرحلة الى نظرية قومية تلائمه.. وهذه النظرية تتمثل اليوم حسب اعتقادنا في الحرية والاشتراكية والوحدة». ان المنهج الذي يكمن وراء الانتقال بالقومية من مستوى البحث النظري التقليدي العام، الى مستوى البحث العلمي، والذي يميز في (القومية العربية) الى جانب الشروط الابتدائية العامة لكل

---

(١٣) المصدر نفسه، ص ١١٤.
(١٤) المصدر نفسه، ص ١١٩.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٢١.
(١٦) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

قومية، الشروط الخاصة بتطور الامة العربية . هو المنهج العلمي الثوري الذي تجاوز الموقفين المجزئين للفكرة القومية العربية. المفهوم القومي الخالص، الذي يتجاهل البنية الطبقية، ثم المفهوم الطبقي المجرد، الذي لا ينطلق من تحليل الواقع الطبقي للمجتمع العربي، بل يكتفي بتطبيق الصيغ النظرية الجاهزة.

فمنهج البعث، ومنظوره الحضاري، قد جعلا مفهوم القومية العربية، يتطور ويتبلور، عبر مراحل نضاله، ومن خلال تضافر اربعة مقومات اساسية:

أ- التراث القومي، الذي يشكل القاعدة الاساسية للثقافة القومية. اي لوعي الامة لذاتها.

ب- الواقع العربي الراهن، الذي تشكل فيه مجموعة التناقضات الاساسية كالتجزئة القومية (السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية)، وغيرها من التناقضات الكبرى، كالتخلف، ومخلفات المرحلة الاستعمارية القديمة التي تغذيها المخططات الامبريالية الجديدة، واحتلال فلسطين، والواقع الطبقي الذي يحول الامة العربية بجماهيرها الواسعة الى امة كادحة، تتجمع ثرواتها في أيدٍ قليلة. أي جملة التناقضات التي تحدد عوامل الضياع في هذا الواقع العربي، انما تشكل بمجموعها تناقضا اساسيا مع حقيقة الامة الحضارية وانقطاعا مع تراثها.

جـ- العصر، وحضارته، التي احتلت فيها المجتمعات الأوروبية، المركز المشع المتفجر، والتي تشكل، بمنجزاتها العلمية والتقنية، الوجه الاخر للانقطاع الحضاري للواقع العربي الراهن. . كما انها، بما ولدته من ظاهرة استعمارية عانت منها الامة العربية تأخذ شكل تحد قومي وحضاري مصيريين، فضلا عن ان الحضارة الحديثة كانت نتاج ثورات قومية واجتماعية وصناعية وثقافية، انعكست بدورها على الوطن العربي، وتكونت من خلال التأثر بتياراتها الفكرية والسياسية، معظم الايديولوجيات التي سبقت نشوء البعث.

د- التحديات المصيرية وحاجات النضال لدفع الاخطار التي تهدد النهضة العربية المعاصرة.

وقد تداخلت تلك المقومات الاساسية في تكوين مفهوم القومية العربية لدى البعث فالثقافة التراثية والتمثل الحي للماضي، قد ساعدا على تأصيل مفهوم القومية العربية من جهة، وعلى جعل علاقة الفكر القومي بالتراث الفكري المعاصر، بدورها علاقة تمثل حي، وليس علاقة ترجمة ونقل وتقليد آلي، من جهة اخرى.

كما ان استيعاب الاتجاهات الحديثة للفكر المعاصر، قد لعب دورا اساسيا في العودة الى التراث من جديد لفهمه فهما حيا. اي من مواقع تقدمية تتطلع نحو مستقبل تستعيد فيه الامة انطلاقتها الحضارية.

وكان للانطلاق من الواقع القومي، وتحليل تناقضاته، من خلال منظور قومي علمي حضاري، دور في تعميق (ثورية) المفهوم القومي و(واقعيته) في آن واحد. وكذلك في (انفتاحه) وعمقه (الانساني)[١٧]:

«فالعروبة هي انسانية. ونحن نفهم من قوميتنا العربية بانها الانسانية الصحيحة. وبأنها تقديس لقوميات الأخرين، فتقدس هذا الشعور عند كل شعب آخر».

واذا كان هناك من يردد الشعارات النازية قائلا (العروبة فوق الجميع)، فإن المفهوم الجديد للبعث، الذي انضجه اتحاد المقومات الاساسية التي سبق ذكرها، قد جاء ليطرح شيئا فوق العروبة[١٨]:

«الحق فوق العروبة الى أن يتحقق اتحاد العروبة بالحق».

فالقومية تظل ناقصة اذا لم تلتحم برسالتها الانسانية. لذلك فان (العروبة يجب ان ترتبط بمبدأ ثابت يكون هو الضامن لتجدد ولتكامل ولاستمرار حياتها نحو النمو).

وعلى هذا الاساس، اصبحت القومية العربية في مفهوم البعث[١٩]:

«مرادفة لحياة الشعب العربي ومشاكله السياسية والاقتصادية والفكرية، واصبحت تعني في وقت واحد الثورة على التخلف والظلم الاجتماعي، والثورة على التجزئة، وفي سبيل توحيد الوطن العربي والثورة على امراض المجتمع وعصبياته وامتهان كرامة الفرد والمجموع، وفي سبيل الديمقراطية والقيم الانسانية».

لان (رسالة القومية العربية) اليوم، تعني[٢٠]:

«أن يتطلع العرب الى بعث امتهم. وأن يحيوا حاضرهم لان المستقبل لن يأتي مالم نتوصل الى ان نحيا حاضرنا بآلامه وماسيه».

وفي عصر تتحرر فيه الامم المظلومة، التي عانت أعمق تجربة للالم، لا بد أن يكون مفهوم القومية، مفهوما تحرريا انسانيا، واشتراكيا تقدميا[٢١]:

---

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٧٥.
(١٨) المصدر نفسه، ص ١٠٤.
(١٩) المصدر نفسه، ص ٤٩.
(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٠٤.
(٢١) عفلق، معركة المصير الواحد، ص ٢٩.

«لقد جاء دور الجماهير في العالم. والجماهير الحقة هي شعوب آسيا وافريقيا التي عانت اعمق تجربة انسانية من الاستعباد الخارجي والداخلي، من الظلم الوطني والاجنبي، فخلافا لما حدث في الغرب فان ثورة الشعوب الشرقية تحمل بالدرجة الاولى طابعا تحريريا انسانيا لانها تتوجه ضد الاستعمار، وفي حين لا يصيب الظلم في الغرب الا طبقات، فالشرق عبارة عن امم مظلومة والامة العربية احدى هذه الامم المظلومة».

وقد اكد البعث على هذا المفهوم الجديد للعروبة، مفهوم القومية التي تولد ضمن سياق تاريخي جديد، وتحمل معاني لم تعرفها القومية في الغرب(٢٢):

«ان فهمنا للعروبة يختلف كثيرا عن المفاهيم التقليدية.. اننا عرفنا قوميتنا بالاشتراكية وبفكرة الحرية. هذه هي الضمانات الحقيقية. ليس هناك اقليات مضطهدة وطوائف مضطهدة، وانما هناك اكثرية شعب مضطهد هو الشعب العربي. ليس في تعريفنا للعروبة اي جمود او تحجر، واعتزاز بالنسب والاصل.. مفهومنا بعيد عن مفهوم القومية النازية.. العروبة هي انسانية ونحن نفهم من قوميتنا العربية بانها الانسانية الصحيحة. وبانها تقديس لقوميات الاخرين، فنقدس هذا الشعور عند كل شعب آخر. القومية المتعصبة هي من نتاج الاستعمار في بلادنا».

ففي هذه القومية الجديدة، قومية (الامم الكادحة)، لا مجال للتفريق بين ما هو (اجتماعي) وبين ما هو (قومي). فالقومية تقوم على وحدة العلاقة بين النضال القومي والاجتماعي(٢٣).

وهي ان (القومية) مفهوم (ثقافي-نضالي) وليس مفهوما سلاليا عرقيا(٢٤):

«القومية هي المستوى الناضج الذي بلغته المجموعات البشرية نتيجة تفاعل قرون طويلة بين افرادها وبين الظروف الطبيعية والتاريخية التي مرت بها، والتي نسجت فيما بينها روابط مادية وروحية مشتركة، اهمها وأعلاها هي رابطة الثقافة».

لذلك فان (قومية الشعوب المضطهدة) بريئة من السمات السلبية التي طبعت المسألة القومية في اوروبا في بعض مراحل تطورها(٢٥):

«فالعرب اليوم، لا يريدون ان تكون قوميتهم عنصرية وارادتهم هذه نابعة من تجربتهم، فقد جربوا ما معنى العنصرية، وجربوا ما معنى الظلم. والعرب لا يريدون ان تكون قوميتهم دينية، لأن الدين له مجال آخر وليس هو الرابط للامة، بل هو على العكس قد يفرق بين القوم الواحد. والعرب اليوم لا يريدون ان تكون قوميتهم تأريخية، لان القومية العربية لا تنفي التراث التأريخي غير العربي. فالامة العربية اليوم وارثة

---

(٢٢) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ١٧٠.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٢.
(٢٤) المصدر نفسه، معركة المصير الواحد، ص ١٤٥.
(٢٥) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ١٨١.

لتراث حضاري غني وواسع يشمل شتى الحضارات التي دخلتها وتفاعلت معها. من مصرية وآشورية وبابلية وفينيقية وغير ذلك. وكذلك فان القومية العربية لا تعني الانغلاق امام الحضارة الانسانية. كما أن القومية في مفهومنا، هي محررة من خطر الانغماس والاستسلام لعوامل البيئة والظروف الاجتماعية المحلية. . ، لانها قومية ذات شخصية».

هذا، وان كون القومية العربية ذات شخصية متميزة، لم يمنع المفهوم القومي لدى البعث من التأكيد على الافق الانساني والبعد الاممي لهذه القومية لأن فهم البعث بالاصل للقومية قد كان فهما ايجابيا[٢٦]:

« واذا فهمنا القومية فهما ايجابيا سليما، فاننا لن نراها ولن نقيمها على صورة تعزل الامم بعضها عن بعض، وتوجد بينها الحواجز والاحقاد، بل نراها في سبيل التفاهم والتعاون الواقعي المجدي بين الامم، وسبيل التكامل والتنافس الايجابي لكي يكتمل المعنى الانساني بهذا التنوع، ولكي تكتمل الحضارة الانسانية بهذا التخصص. . ».

فالقومية حسب منظور البعث «ليست كما يمكن ان يوهم التفكير السطحي، درجة في سلم التطور والارتقاء نحو الانسانية، وان بينها وبين الانسانية فاصلا اساسيا وتفاوتا في الدرجة والقيمة، بل انها هي تربة الانسانية وهي المجال الحي لاخصابها. فالانسانية روح واتجاه ومثل تنبت في تكوين الشعوب والامم وتلون حضارتها وتوجه سلوكها واخلاقها فالانسانية مرافقة للقومية وليست لاحقة لها»[٢٧].

وقد اكد مفهوم البعث للقومية على (منطق وحدة الاهداف القومية وتداخلها) اي على «اعتبار اهداف العرب الكبرى، الحرية والاشتراكية والوحدة، كلا لا يتجزأ ولا يجوز فصل بعضها عن بعضها الآخر» [٢٨].

ومصدر التركيز على (منطق وحدة الاهداف وتداخلها)، ينبع من تحليل علمي جدلي لتناقضات المجتمع العربي، ومن وعي بوحدة هذه المتناقضات[٢٩]:

«طرحنا المشكلة القومية كوحدة لا تتجزأ، ولم نأخذ منها جزءا فقط ـ كما فعلت الماركسية حين اخذت الناحية الطبقية، ناحية الصراع بين المالكين والمحرومين. مشكلتنا اوسع من ذلك واعمق بكثير: مشكلة وطن مجزأ مستعمر في بعض اجزائه، والتجزئة هي اكبر عائق في طريق نهضته. وهي مشكلة وطن متخلف في شتى النواحي: في الفكر والاقتصاد والسياسة وفي كل شيء، ويحتاج الى ان نبني فيه كل شيء من جديد».

فالقومية العربية حسب هذا المنهج الجدلي العلمي الشمولي، ثورة شاملة تستوعب كل عوامل الضياع والتناقض في المجتمع العربي في المرحلة التأريخية الراهنة، وتبني تصورها

---

(٢٦) المصدر نفسه، معركة المصير الواحد، ص ١٤٤.
(٢٧) المصدر نفسه.
(٢٨) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ٢٣٧.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٢٤.

الشمولي للمستقبل من خلال احاطتها الكلية بجدل تلك المتناقضات ودرجة خطورتها على مسيرة النهضة العربية المعاصرة.

فالمسالة الطبقية تبدو حسب هذا المنهج، جزءا من كل، هو (القضية القومية). وهي مع قضية التحرر والوحدة تشكل كلاً لا يتجزأ:

«ان القضية العربية يجب ان تؤخذ كوحدة لا تتجزأ وأن تعالج على هذا الأساس».

وقد كان حزب البعث العربي الاشتراكي أول حركة ثورية في الوطن العربي طرحت القضية الاشتراكية جنباً الى جنب مع القضية القومية وجعلت الحقيقتين القومية والاشتراكية جزءاً من كل، وقد كان اساس الربط بين الحقيقتين قائمًا على ادراك لحقيقة أصلية تجمعها، وهي حقيقة (الأمة العربية) في هذه المرحلة من تاريخها. فهي (أمة كادحة مناضلة) [٣٠]:

«ان مجتمعنا العربي بحاجة الى ان يغالب نفسه ويناضل نفسه، بحاجة الى بذل جهد ومشقة كبيرة حتى يسترد ذاته الحقيقية. النضال الذي هو التعبير العملي عن فكرة الانقلاب، انما يقصد به أن تغالب الامة العربية نفسها بعد تلك الغفوة الطويلة. أن تنقسم على نفسها لكي تسترد وحدتها العميقة..».

(النضال هو المعبر الصحيح عن الأمة...).

(هناك امة عربية متحققه في كل مكان يوجد فيه نضال. امتنا اذن، موجودة في كل مكان يحمل فيه افرادها السلاح).

(أقصد بالأمة العدد الأكبر، ولا أقصد بها تلك الاقلية المشوهة المستعبدة لمصالحها الخاصة، لانها لم تعد من الأمة).

(ان القوى المعادية للشعب العربي قد عينت نفسها، فهي، الاقطاعيون والرأسماليون والاستعمار والرجعية..).

وهكذا، فان التصور الطبقي للامة هو اساس المفهوم القومي الطبقي الذي يشكل العنصر الجديد المكتشف في فكر البعث. وعلى هذا الاساس، كان تصور القومية العربية بانها[٣١]:

«تعادل حياة الجماهير ومصلحة الجماهير وقضية الجماهير».

كما كان التأكيد على آن[٣٢]:

---

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٧، ٤١، ٦١، ٢٥١، ٢٦٠.
(٣١) المصدر نفسه، ص ١٨٦.
(٣٢) المصدر نفسه، ص ٥٢.

«مصلحة القومية وبقاء الامة ومجاراتها للامم الراقية وصمودها في تيار التنافس بين الدول، متوقف على تحقيق الاشتراكية».

وهذا التصور الثوري (للقومية العربية)، الذي يستشف صورة المستقبل المشرق للنهضة العربية، ويعمل على تحقيقه، قد كان بدوره مقترنا بتصور لمستقبل العالم. «ففكرة البعث، منذ البداية تدعو الى حل ثوري جديد لمشاكل العالم»[٣٣].

وتصورها لهذا المستقبل قائم على «تعاون حرّ بين أمم حرّة اشتراكية» كما أن تصورها لثورة القومية العربية ذاتها قد قام على أساس أنها[٣٤]:

«ثورة انسانية تتعدى في فكرتها وفي اثارها العملية نطاق الوطن العربي، لانها ثورة القومية بمعناها الايجابي العميق الخلاق، معنى التحرر في الداخل والخارج، والتقدم لشعبنا ولجميع الشعوب، والسلم والتعاون المبنيين على نضج الحرية داخل كل شعب، لا على القسر والاستغلال والتبعية».

فالقومية حقيقة انسانية لم يظهر لنا التاريخ الانساني بعد أنها شيء طارىء عابر سطحي يمكن ان يتلاشى تبعا لتبدل الظروف السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية، بل ان ما يرينا اياه التاريخ هو أن القومية تتغلب على شتى التبدلات السياسية والاجتماعيةوغيرها. وتظل حية في حالة ضعفها وتراخي روابطها وغموض وعيها لذاتها[٣٥]. والمفهوم الانساني التقدمي، الذي انضجته تجارب العالم الثالث، وفي مقدمتها النهضة العربية المعاصرة بالرغم من (لا انسانية) التحديات والقوى التي تعترض طريق هذه النهضة انما هو تعبير عن (نضج الانسانية).

فإذا كانت (القومية) شيئاً أساسياً (كالدين) في حياة البشر، كما تؤكد فكرة البعث.. فان القومية العربية لا بد أن يكون لها (موقف ايجابي) من الدين، الى جانب موقفها السلبي من الرجعية، وان يكون مفهومها للعلمانية غير متعارض مع تمسكها بالتراث القومي[٣٦].

«فقد دعا البعث العربي الى مفهوم جديد للحياة القومية، قوامه الايمان بالقيم الروحية الانسانية، ومظهره الانفصال الحاسم عن مفاسد الواقع ومكافحتها في طريق صاعدة شاقة تسير فيها الامة. لذلك لم يبق في مفهوم البعث العربي مجال لاي تدين لا يحمل آثار هذا الايمان، والبعث العربي الذي هو حركة روحية ايجابية لا يمكن ان يفترق عن الدين او يصطدم معه، ولكنه يفترق عن الجمود والنفعية والنفاق».

وبالرغم من أن البعث العربي حركة قومية «تتوجه إلى العرب كافة على اختلاف

---

(٣٣) المصدر نفسه، معركة المصير الواحد، ص ١٩٧.
(٣٤) المصدر نفسه، ص ١٤٣.
(٣٥) عفلق، في سبيل البعث، ص ١٦٤.
(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٤١-٢٥٢.

أديانهم ومذاهبهم، وتقدس حرية الاعتقاد وتنظر الى الأديان نظرة مساواة في التقديس والاحترام» فإن مفهوم البعث للقومية هو الذي جعله «يرى في الاسلام ناحية قومية لها مكانتها الخطيرة في تكوين التأريخ العربي والقومية العربية» وهكذا استطاع مفهوم البعث للقومية العربية «أن ينقذها من مفهومين منحرفين»: مفهوم القومية المجردة الذي يفرض عليها الاصطناع والفقر. ومفهوم القومية الدينية الذي يقضي عليها بالتناقض والتلاشي.

لذلك فان «العلمانية، التي يطلبها البعث للدولة، هي التي بتحريرها الدين من ظروف السياسة وملابساتها، تسمح له بأن ينطلق في مجاله الحرّ في حياة الأفراد والمجتمع، وبأن تبعث فيه روحه العميقة الأصلية، التي هي شرط من شروط بعث الأمة».

فالاسلام، هو في الأساس ثورة كلية شاملة (روحية، وقومية، وحضارية، واجتماعية وثقافية) في حياة العرب والعالم. وبهذا الاعتبار، كانت له «مكانة خاصة في روح القومية العربية وثقافتها وحركة انبعاثها».

أن التصور الانقلابي (للقومية العربية) ينعكس على ماضيها وحاضرها ومستقبلها. فالبعث نظر الى تراث الامة، نظرة علمية ثورية، فكانت (التقدمية) هي سبيل اتصاله بهذا الماضي. ونظر الى حاضر الامة، نظرة انقلابية، تهدف الى تحقيق انقلاب عميق وشامل في واقع المجتمع العربي. لذلك فان للقومية العربية نظرتها ونضالها واداتها، المتجهة جميعها، نحو المستقبل. فللقومية العربية في منظور البعث، بعد تاريخي، وبعد فكري، وبعد اجتماعي وبعد نضالي: فهي وعي وانتماء وقضية وموقف، وحركة تاريخية.

وقد كان وعي القومية العربية لتحديات نهضتها وثورتها، وللسياق التاريخي العام، دافعا لها للتمسك بالاستقلالية، والاعتماد على الذات، كأساس في التضامن مع القوى العالمية.

فقضيتنا الكبرى -فلسطين- تلخص تحديات العصر، ليس بالنسبة الى الامة العربية وحسب، بل لجميع الشعوب الناهضة في العالم. ولكنها بالدرجة الاولى هي قضية العرب، ومسؤوليتهم.

فمنطق (القوى الكبرى) المترسب من المرحلة الاستعمارية القديمة، والمخططات الامبريالية المعادية لنهضة الامة العربية، والوجود الصهيوني المصطنع الذي يشكل التحدي الخاص للامة، تشكل بمجموعها تحديات عامة، تتطلب مواقف انسانية موحدة، عبّرت عنها سياسة عدم الانحياز، التي كان مفهوم البعث للقومية العربية في طليعة من طرحها كخط فكري وسياسي جديد، بعد الحرب العالمية الثانية.

بيد أن تحويل التضامن الجديد بين الأمم والشعوب المناضلة الى حقيقة فاعلة، قد أصبح مرهوناً في نظر القومية العربية بمفهومها الانبعاثي الجديد، ومشروطاً بتحقيق نضال على مستوى التحديات الكبرى في هذا العصر. أي بالارتفاع الى مستوى العمل التاريخي. . مستوى القدرة على المشاركة في تغيير صورة العالم الراهن، وبناء عالم جديد وحضارة انسانية جديدة.

فالقومية العربية، بهذا الاعتبار هي التحدي الاكبر وهي التحدي التاريخي للعرب وللعصر. وقضيتها هي قضية العرب وقضية العصر.

## المفهوم الجديد للوحدة العربية

لقد انطلق فكر البعث في تصوره للوحدة العربية، كما انطلق في تحديده لمعنى القومية العربية، من نقد للمفاهيم السابقة، التي لم تستوعب (تناقض التجزئة)، والابعاد التي تربطه، بباقي تناقضات المرحلة الراهنة للمجتمع العربي.

فقد انتقد فكر البعث النظرة السياسية التي كانت سائدة، والتي تتصور الوحدة من خلال (منطق التجزئة)، حيث التصور السياسي ينفصل عن التصور القومي المستند الى فهم عميق لمعنى (القومية العربية). فالشيء المفتقد في حياة العرب اليوم هو (الوحدة القومية). اما الوحدة السياسية فهي نتيجة ومظهر من مظاهر الوحدة القومية، التي تتناول الى جانب السياسة، الاقتصاد، والثقافة والحياة الاجتماعية والنظرة الحضارية(٣٧):

«التصور السياسي ينظر الى الوحدة بانها جمع اعداد. جمع كميات الى بعض. . ولكن الاشياء الميتة اذا جمع بعضها الى بعض لا تنتج حياة. . ثم ان الوحدة لا تكون بالتشابه السلبي، بأن يتشابه الجميع بالتأخر. بل الوحدة الحقيقية هي وحدة ايجابية: التشابه بالقدرة على العمل والانتاج والابداع. . الوحدة هي تحرير وتقدم وتحقيق انبعاث روحي في المجتمع العربي. اذ لا مكان للتوحيد في حالة التأخر والتردي ولا يمكن ان يتجد اثنان اذا لم يكن فيهما بذرة مهما تكن بسيطة من النزوع الروحي تجمعهما في سبيل غاية مشتركة أعلى من انانية كل منهما. . فلا بد أذن ان نتصور الوحدة العربية تصورا انقلابيا ثوريا».

كما انتقد فكر البعث الوحدوي، (٣٨) «النظرة المنحرفة التي تقول بأن الوحدة العربية، أو الرابطة العربية، ليست شيئا ينبعث من اعماق حياة العرب في كل اقطارهم، وانما هي نقاط التقاء مشتركة بين هذه الاقطار. وهذا معناه ان كل قطر، بشخصيته الخاصة، هو الاصل والاساس. . مثل هذا الالتقاء قد يقع بين شعوب مختلفة موجودة في قارة أو في جزء منها، تفرض عليها ظروفها أن تتعاون. أما في الوطن العربي، فهذا ما يريده الاستعمار، لان هذا الشكل من التعاون السطحي يعطي مشروعية وترسيخا للتجزئة، وتذهب فائدته الى الاستعمار».

---

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) المصدر نفسه.

ثم ان البعث قد انتقد النظرة التي تفصل (الاستقلال) عن العمل الوحدوي بالمراحل، فهي تتصور العمل الوحدوي يبدأ بعد انتهاء المرحلة الاستعمارية، متجاهلة أن الاستعمار يخطط للوطن العربي ككل[٣٩]:

«الوحدة العربية ليست مرحلة من مراحل نضالنا يمكن أن نوقتها بعد زوال الاستعمار والاقطاع والدكتاتورية، في قطر او آخر. فالعمل للوحدة يبدأ منذ البدء، والاستعمار موجود، والاستغلال الاقطاعي والحكم الرجعي موجود. فهناك شيء ترتبط به جميع المشاكل الجزئية: المشكلة القومية، التي هي اساس تلك المشاكل».

وانتقد البعث ايضاً، من اطلق عليهم اسم (وحدويي التجزئة)[٤٠]:

«وحدويو التجزئة يعتبرون الوحدة شيئاً آلياً يتحقق عندما تتهيأ الظروف وتسنح الفرص. وأنها لا تحتاج الى تهيئة الا التهيئة السياسية بالمفاوضات والمناورات. فالوحدة تأتي في ادنى درجة من الاهمية بالنسبة الى المشاغل القطرية التي تستأثر عملياً باهتمامهم كله. اما الوحدة في نظر البعث العربي، فهي فكرة اساسية حية لها نظريتها كما للحرية والاشتراكية نظريتها. ولها مثلها نضالها المبدئي اليومي المنظم المستمر، ومراحلها العملية التي تزيد في قوة النضال، وتمهد الطريق للنصر الاخير».

ان التراث الفكري للبعث يتركز في مجمله حول انضاج هذه (النظرية) ورسم (استراتيجيتها) واعداد (أداتها) النضالية الوحدوية. وقد كان (المنهج الوحدوي) هو وسيلة البعث لبلورة تصور جديد للوحدة العربية. وقد انطلق هذا المنهج الوحدوي، من التأكيد على أهمية الوحدة، وعلى (اولويتها) ضمن اطار النظرية القومية الجديدة، (نظرية الوحدة والحرية والاشتراكية).

فكما ألحت فكرة البعث على أهمية القومية كحقيقة اساسية في حياة البشر، في وقت كانت فيه الايديولوجيات المعاصرة تنكرها، وتعتبرها شيئاً عارضاً ومرحلة. هكذا ايضاً، انطلقت من النظر الى الوحدة العربية، في مرحلة كانت فيه فكرة الوحدة تشكو من التشكيك بها أو التشويه لمضمونها. فأكدت فكرة البعث على أن الوحدة العربية هي[٤١]:

«سر انبعاث العرب وقوة العرب، في هذا العصر».

واعتبرتها[٤٢]:

---

(٣٩) المصدر نفسه، معركة المصير الواحد، ص٤١.

(٤٠) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ١٨٧.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٢٨٥.

(٤٢) نضال البعث، الجزء الأول: القطر السوري ١٩٤٣- ١٩٤٩، من معركة الاستقلال الى نكبة فلسطين والانقلاب العسكري الأول، الطبعة ٣ مزيدة (بيروت: دار الطليعة، [١٩٧٢]).

«المعيار لثورية الافراد والجماعات، ولثورية امتنا، في هذه المرحلة التاريخية».

كما أن الدستور الأول للبعث عام ١٩٤٧، يضع (وحدة الامة العربية) كمبدأ أساس أول من مبادئه(٤٣):

«العرب أمة واحدة لها حقها الطبيعي في أن تحيا في دولة واحدة وأن تكون حرة في توجيه مقدراتها، ولهذا فإن حزب البعث يعتبر:

١. الوطن العربي وحدة سياسية اقتصادية لا تتجزأ ولا يمكن لأي قطر من الاقطار العربية ان يستكمل شروط حياته منعزلا عن الآخر.

٢. الامة العربية وحدة ثقافية وجميع الفوارق القائمة بين ابنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي».

وفي عام ١٩٥٠، يعبر البيان الصادر حول فكرة اتحاد سوريا والعراق، عن نظرته لأهمية الوحدة بالقول(٤٤):

«الوحدة بالنسبة الى العرب هي القانون الاعلى والهدف الأسمى».

وبعد خمسة عشر عاماً من بدء انطلاقة البعث، يقول الاستاذ ميشيل عفلق(٤٥):

«بدأ حزبنا ونادى بفكره، أعتقد بأن الوحدة العربية ابرز شيء فيها. وبالرغم من أن حلم الوحدة يراود العرب جميعاً في مشرقهم ومغربهم إلا أن الكثيرين حتى من المثقفين ومن العاملين في الحقل القومي كانوا ضعيفي الايمان بها. وكانوا ينسبون الى دعوتنا (الخيالية) ويعتبرون باننا نطالب بأشياء نظرية».

وعندما تحققت أول تجربة جدية للوحدة في حياة العرب المعاصرة عام ١٩٥٨، نبه ميشيل عفلق إلى خطر التجزئة، ووصفه له بأنه (خطر قتال)، وحرص على أن يبرز أهمية (الخطوة الوحدوية) التي تمت كتعبير عن أولوية الوحدة، على الصعيدين النظري والتطبيقي(٤٦):

«ان قضية الوحدة، كان لها مكان بارز في فكرة البعث ونضال البعث، لأنها كانت معرضة لأن تظلم حتى من الذين ليس لهم مصلحة في أن يظلموها، لأنها كانت خافية في حقيقتها على الكثيرين، فطرحت حركتنا قضية الوحدة طرحاً ثورياً لقي الكثير من المقاومة والمغالطة وسوء الفهم ولكنه تجاوب مع حاجات

---

(٤٣) الياس فرح، تطور الايديولوجية العربية الثورية، الطبعة ٦ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [١٩٧٥])، ص ٥٧.

(٤٤) عفلق، في سبيل البعث، ص ٢٤١.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٤٦) المصدر نفسه، «المؤامرة والرد التاريخي»، ص ٤، ١٣.

الشعب وحس الشعب، ووعي الشعب اخيراً، وكُتِبَ له ان يظفر».

وفي الذكرى الثانية والثلاثين لتأسيس البعث عام ١٩٧٩، يتكلم ميشيل عفلق عن حزب الأمة العربية الذي أدرك أن «خصوصية الثورة العربية تكمن وتتلخص في الوحدة وعقيدتها». . . «وأن العقيدة الوحدوية العلمية تفرض التمييز بين (ثورة قطر) وبين (الثورة العربية في قطر)، التي تحول القطر الى قاعدة انطلاق لفكرة الوحدة، والربط الحي بين الوحدة والحرية والاشتراكية»[٤٧]. إن عقيدة الوحدة في البعث، تستند أولاً، الى وعي فكر البعث لخطورة (تناقض التجزئة) فالوحدة[٤٨]:

«ليست ترفاً للعرب، فلا يمكن أن يصل القطر الواحد الى استقرار والى تقدم ملموس واستقلال متين ما دامت أقطارنا متفرقة وما دام الاستعمار يستطيع أن يلعب بنا، أن يستغل فرقتنا. فالوحدة ضرورة حيوية قاهرة. ولولاها ولولا أهميتها لما تكاتف الاستعمار العالمي والصهيونية العالمية وخلقوا عقبة كبيرة في طريقها، الكيان الصهيوني.». فالوحدة هي أولاً جواب على التجزئة فهي لم تصبح مطلباً إلا عندما حلت التجزئة بالوطن العربي. واذا كانت التجزئة هي التي سمحت للمؤامرات الاستعمارية والامبريالية والصهيونية، بأن تنال من الأمة العربية ونهضتها، فإن «حتمية فشل المؤامرة لها تعبير واحد هو تحقيق الوحدة»[٤٩].

ثم ان مفهوم الوحدة لدى البعث يستند ايضاً الى مبدأ (وحدة الامة العربية) ومبدأ (وحدة القضية العربية):

«لئن كان قد تسمى بالبعث العربي فليس ذلك لأنه اول حزب آمن بالوحدة العربية فكراً وعملاً، وجعل تنظيمه على اساس عربي شامل فحسب، بل لأنه آمن منذ البدء أن كل نظرة ومعالجة لمشاكل العرب الحيوية في اجزائها ومجموعها لا تصدر عن هذه المسلّمة: وحدة الامة العربية تكون نظرة خاطئة. . ووحدة القضية العربية تستتبع بالبداهة تحقيق الوحدة العربية».

فالوحدة العربية، في منظور البعث، هي[٥٠]: «جزء من محتوى القومية العربية في مرحلة من المراحل. فالنظرية القومية، أيديولوجية القومية العربية تقوم في هذه المرحلة على تحقيق الحرية والوحدة والاشتراكية. فالوحدة هدف من اهداف نضال الامة العربية في هذه المرحلة».

والوحدة، في فكر البعث[٥١] «فكرة ثورية وعمل ثوري» تتطلب «خلق التفكير

---

(٤٧) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ١٨١.
(٤٨) المصدر نفسه «المؤامرة والرد التاريخي» ص ١٠، ١١.
(٤٩) المصدر نفسه، معركة المصير الواحد، ص ٤١، ٧٦.
(٥٠) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ٢٢١.
(٥١) المصدر نفسه، معركة المصير الواحد، ص ٤١ـ ٤٥.

والنضال المناقضين للتجزئة» فعقلية التجزئة ونفسية التجزئة، هما صورة للواقع المناقض لحقيقة الأمة . وانقلابية البعث المباشرة من فكرة الوحدة لأن «الوحدة ثورة تأتي لتزيل التشويه وتغير الواقع وتطلق القوى الحبيسة».

لذلك أعطى فكر البعث للوحدة رجحاناً معنوياً على باقي الاهداف القومية لأن تناقض التجزئة، يتدخل في تكوين باقي المتناقضات بشكل حاسم.

ثم لأن الوحدة(٥٢):

«هي أصعب معاركنا. فهي (الثورة الخالصة)، التي يضع فيها العرب كل امكانياتهم.(الثورة) التي لا يعتمد فيها العرب الا على أنفسهم هي (معركة الوحدة) في حين أن ثورة التحرر والثورة الاجتماعية تساندهم فيها قوى اخرى: تيار العصر يصفي الاستعمار، وتقدم الانظمة الاشتراكية في كل مكان.

أما الوحدة فهي اصعب لأنها تتطلب من العرب الجهد الذاتي، تتطلب بعداً في النظر، وتضحية للسهل القريب في سبيل الأجل الصعب وللفوائد الشخصية والقطرية في سبيل منفعة الجميع. وهي حساب دقيق وتنظيم وتجرد وايمان».

ان التصور الوحدوي، هو في نظر البعث، ارتفاع الى مستوى جديد في الفكر القومي العربي، «ليس من حيث الشمول واستيعاب الوطن العربي ككل. وإنما من حيث معالجته لجميع المشاكل الاساسية التي تتعلق بحياة العرب، بعيشهم وانتاجهم، وبحريتهم وكرامتهم»(٥٣).

فاستيعاب المفهوم الجديد للوحدة، لشبكة التناقضات في حياة العرب الراهنة، يجعل معالجة لهذه التناقضات معالجة ثورية تقدمية، تحسم الاتجاه الصحيح لمسيرة الوحدة(٥٤):

« لا وحدة مع الرجعية ولا تقدمية مع التجزئة».

ومفهوم الوحدة، المنبثق من عقلية الوحدة ونفسية الوحدة، يختلف في النوع وليس في الكم، عن المفاهيم القطرية، ذات البعد الوحدوي السطحي الزائف: «لأن هناك فرقاً بين الحرية والاشتراكية كما تفهمان في حالة التجزئة (وفي عقلية التجزئة) وبينهما في عقلية الوحدة. والحرية التي يسعى اليها كل قطر عربي على حدة لا يمكن ان تبلغ من العمق والشمول والمعنى الايجابي ما تبلغه الحرية التي تنزع اليها وتقدر على تحقيقها الامة العربية كأمة ذات تراث حضاري واستعدادات وامكانات لنهضة جدية أصيلة. كما ان الاشتراكية التي تتقلص وتتشوّه وفي حدود القطر الواحد حتى تقتصر على اصلاحات جزئية

---

(٥٢) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ٢٨٩.
(٥٣) المصدر نفسه، ص ٢٨.
(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٩٧.

خادعة، تأخذ كل مداها النظري والتطبيقي عندما يكون مجالها الوطن العربي كوحدة اقتصادية وكوحدة شعبية نضالية»(٥٥).

ان جدل (القومي والقطري) في المنظور الوحدوي للبعث يستوعب جدل العام والخاص في المسيرة النضالية للوحدة(٥٦) فهو مفهوم يتسع للتعددية:

«لا شك ان بين الاقطار العربية المختلفة بعض الفروق في الاوضاع الداخلية وخاصة الخارجية. وهذه الفروق ليست في رأينا مما لا يمكن التغلب عليه، من أجل توحيد النضال... اما اذا فهمنا من الفروق اكثر مما تمثل الكلمة، وبالغنا في اعطاء الأهمية للفروق، ورضينا ان نسترسل في طريق التفريق والتمييز فإن في ضمن القطر الواحد، فروقاً بين منطقة وأخرى.. اذن في مفهوم العمل السياسي والقومي، كلمة (فروق) لها حدود لا يجوز أن نتجاوزها».

وكما أن العام يستوعب الخاص، فإن الخاص يتحدد بالعام(٥٧):

«لم نقل مع القائلين: لِنَسْعَ أولاً الى اصلاح حال كل قطر، لأن القطر الواحد ـ الجزء اذا لم يعرف منذ البدء بأنه جزء فقط، وبالتالي بأنه ناقص وبأنه عاجز ومفتقر الى ما يكمله، وأنه لا تستقيم حياته ولا تستقيم نظريته الى الحياة اذا لم يتصور نفسه حلقة في سلسلة، وجزءاً من كل، وعضواً في جسم كامل، وأن لهذا الجسم معنى في الوجود ورسالة في الحياة فلا يستطيع القطر ان يصلح شؤونه اصلاحاً عميقاً».

لذلك فإن منظور البعث الوحدوي، لم يتصور (الوطنية) شيئاً مستقلاً عن (القومية) او متعارضة معها. وكما أن وحدة (القومي والطبقي)، تقوم في الفكر الوحدوي على اساس مفهوم (الامة الكادحة)، حيث المسألة الاجتماعية جزء من القومية. كذلك فإن وحدة (الوطني والقومي) تقوم على اساس مفهوم الامة المضطهدة المظلومة، حيث النضال التحرري يشكل جزءاً من النضال القومي.

وهكذا فإن مفهوم البعث للوحدة، لا يفقد الجزء شخصيته، بل يؤكدها ويعمقها ويكسبها أصالة ويفجر طاقاتها المبدعة، طالما أنه يضع الجزء في مكانه الطبيعي الحي(٥٨):

«ان السبيل الى جعل الوحدة وحدة شعبية اشتراكية وديموقراطية هو الايمان بها وتبنيها والعمل لها.. ولا يتم لنا بعث عربي حقيقي اذا لم تتوحد جميع اقطارنا ويأتي كل قطر بمساهمته وتجربته ليكمل تجربة الاقطار الاخرى، حتى تأتي التجربة العربية متحدة الجوانب مكتملة المعاني».

(٥٥) المصدر نفسه، معركة المصير الواحد، ص ٤٢.
(٥٦) المصدر نفسه في سبيل البعث، ص ٢٥٣.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

وعلى ضوء هذه النظرة، جعل فكر البعث الوحدوي، معالجة المشكلات القطرية معالجة ثورية سليمة ناضجة، شرطاً من شروط العمل الوحدوي، المستوعبة للمنظور الحضاري للقومية العربية(٥٩):

«في وطننا العربي الكبير من المشاكل والاوضاع الشاذة المتراكمة ما يتحدى ثورية القومية العربية واصالتها كل يوم، ويدفعها باستمرار كيما تجعل من واقعها وعاء شفافاً للمبادىء التي نادت بها. فالمغرب العربي وتكوينه التاريخي الخاص الذي جمع بين العرب والبربر.. والعراق واقلياته.. ولبنان وتكوينه الخاص... كل هذه الحالات تتطلب حلولاً ثورية سليمة، تحفظ للعروبة كل اجزاء ارضها وشعبها، وتحقق الوحدة الروحية والتفاهم والانسجام بين الجميع».

لقد ربط مفهوم البعث للوحدة بينها وبين الحاجات الحيوية لجماهير شعبنا. فبعد أن كان يظن:

«ان الوحدة العربية هي وحدة على شكل امبراطورية يحققها الملوك أو الجيوش الغازية أو الطبقات الغنية.. وحدة قسرية تتمكن فيها طبقة من الحكام من احكام سيطرتها ضد اكثرية الشعب، ومن اخفات كل صوت يطالب بالحرية وبالعدالة.. فإن الملامح الايجابية لوحدتنا العربية اصبحت واضحة من خلال مضمونها الديمقراطي والاشتراكي. فهي تعبير عن النضال ضد الاستعمار وضد الطغيان الداخلي، وعن النضال ضد الاستغلال الطبقي وضد التأخر والجمود الفكري. كما اصبحت قضيتها وجهاً من وجوه النضال العربي الشامل. فجماهير الشعب هي التي تحمل اليوم نضال الوحدة، وتستخرج صورة الوحدة من الآلام والتجارب التي ابعدتها نهائياً عن كل تعصب وكل تفرقة فلم يعد ثمة خوف على الوحدة العربية في أن تتجه اتجاهاً رجعياً او عنصرياً أو انكماشاً عن المجموعة البشرية، ما دامت هذه الوحدة تنبثق من النضال الشعبي وتعبر عن حاجات هذه الجماهير الشعبية المناضلة»(٦٠).

ان معيار الوحدة الصحيحة، في مفهوم البعث، هي أن تكون (ثورة دائمة) لا تتوقف ولا تتجمد ولا تنكمش. وهذه العلاقة الجدلية بين الوحدة والثورة، تفرضها معركة الوحدة مع الصهيونية ومع الاستعمار. فكل «تلكؤ في مواجهة مشاكلنا السياسية ووحدتنا القومية بتفكير واسلوب ثوريين انقلابيين، قد لا يؤخر حل مشكلة الاستعمار واسرائيل فحسب، بل يسمح بتدعيم كيانها الى حد يصعب او يتعذر معه في المستقبل التخلص من هذا الخطر»(٦١).

---

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

(٦٠) المصدر نفسه، معركة المصير الواحد، ص ١٤٨.

(٦١) نضال البعث، الجزء الثالث: القطر السوري ١٩٥٤-١٩٥٨، من معركة حلف بغداد والعدوان الثلاثي الى قيام الجمهورية العربية المتحدة، الطبعة ٢ (بيروت: دار الطليعة، [١٩٧٢])، ص ٢٦٩-٢٧٣.

فالتطور العادي يبقى داخلاً في حساب الاستعمار. اما التطور الوحدوي فهو ثورة تفجر في الشعب العربي من القوى ما ليس في حساب العرب انفسهم، وما ليس في مقدور الاستعمار أن يخنقه أو يكبحه أو يتآمر عليه(٦٢).

اذن فعندما تكون الوحدة العربية هي المحور لثورتنا والقلب الذي يغذيها والافق الذي يلهمها، تنتفي جميع الاسباب والمحاذير التي كانت تفرض على حياتنا ذلك المستوى المنخفض من التفكير والعمل. فسواء في معركة الحرية والاستقلال او في معركة التقدم والثورة الاجتماعية. فإن فكرة الوحدة تفتح الباب على مصراعيه في كل قطر عربي للحلول الجذرية الحاسمة، لأنها تحمل كل قطر عربي اعباء الأمة العربية كلها. كما تزوده بقوة الشعب العربي كله. فثورة الوحدة تتجلى في كونها ترفع النضال العربي الى مستوى الالم الأعمق والخطر الأكبر. وهكذا فإن الوحدة تقود الى الثورة، كما ان الثورة تقود الى الوحدة وهكذا فإن شرط نجاح أية تجربة وحدوية يكمن في قدرتها الدائمة على اختراق التجزئة وتغيير الواقع الاقتصادي والاجتماعي، والعقلية والنفسية الموروثتين من واقع التجزئة.

لأن الوحدة الصحيحة هي الوحدة الثورية التي تشكل معركة مفتوحة مباشرة مع عوامل تجزئة الوطن العربي والامة العربية. والمستوى الوحيد الذي تعيش فيه تجربة وحدوية ناجحة هو مستوى الثورة الدائمة، أي التفجير الدائم للتجزئة وخلق التغيير الفكري والاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي يفتح الطريق أمام جماهير الشعب العربي لكي تقوم بدورها التاريخي في تحقيق الوحدة.

لذلك فإن «التجسيد السليم للاشتراكية والديموقراطية، هو الضمان الاساسي لحماية نضال الوحدة من الانتكاس والتعثر»(٦٣).

فارتباط اهداف الوحدة العربية والحرية والاشتراكية، هو الاساس الذي انطلقت منه نظرة البعث للوحدة العربية لتوضيح وتأكيد المفهوم الثوري المتجدد للوحدة: وكل خلل في هذه المعادلة اي في العلاقة بين الوحدة ومضمونها الثوري وجماهيرها الكادحة، التي تشكل ضمانة تحقيق الوحدة الثورية.. إنما هو تحطيم لفكرة الوحدة وانحراف عن مسيرتها التاريخية.

---

(٦٢) عفلق، معركة المصير الواحد، ص ١٩٨.

(٦٣) نضال البعث، الجزء الرابع: المؤتمرات القومية السبعة الأولى، ١٩٤٧، ١٩٦٤ (بيروت: دار الطليعة، [١٩٧١])، ص ١٢٥.

ان وحدة العلاقة بين الاهداف القومية الاساسية، عنصر اساس في بلورة المفهوم الوحدوي الثوري المتجدد. وهي لا تستكمل شروط نقل هذا المفهوم من اطاره الفكري (الايديولوجي) الى مجال التطبيق العملي لاستراتيجية الوحدة، الا بدراسة الواقع وتحليل الظواهر الاجتماعية، والتخطيط الذي «يوفر الضمانات الكفيلة بتهيئة الظروف الموضوعية التي تساعد على نمو القوى الوحدوية» والتربية النضالية التي تخلق وعي الوحدة وتنظيم الوحدة، المنسجمين مع الطبيعة الثورية المتجددة لمسيرة الوحدة.

وهكذا فإن وحدة العلاقة بين الايديولوجية والاستراتيجية، ينبغي أن تدعم بوحدة العلاقة بينها وبين اداة التحقيق، التي هي جماهير الوحدة وطلائعها المعدة لانجاز مهمة تاريخية انسانية كبرى. ان ابراز (البعد الحضاري) لمفهوم الوحدة العربية يشكل ايضاً، احدى السمات البارزة لمنظور البعث(٦٤):

«الوحدة العربية هي مرادفة لوجود العرب كافة. انها ذات شخصية حضارية وهي لا يمكن ان تتم من نفسها. فهي تحتاج الى ثورة لكي تتحقق... وثورتها لا تنفصل عن ثورة الشعب من اجل الحرية والاشتراكية. إلا أن الوحدة تبقى هي الثورة الاساسية التي تعطي الى الحرية والاشتراكية كل مداهما واصالتهما وطابع الانبعاث الحضاري لهما... ان الوحدة اصعب الثورات، فهي مغالبة لواقع قديم مستعصٍ من الاقليمية والمصالح الرجعية ولمقاومة عنيدة من الاستعمار وحتى من الدول الشرقية».

فالمسيرة الوحدوية هي مسيرة حضارية لأنها تفترض مستوى من الانقلاب الفكري والاستعداد النضالي والموقف التاريخي والفضائل النفسية والخلقية.. يجعل منها مسيرة تاريخية صاعدة تلتقي من جديد بالمسيرة الحضارية للبشرية بعد أنْ جددت الصلة الحية بالتراث الحضاري النضالي للأمة، وحققت المصالحة بين الماضي والحاضر والمستقبل.

وهكذا يبدو الصراع بين دوافع الوحدة وبين مقاومات التجزئة، في نظر البعث، صراعاً بينْ النهضة العربية المعاصرة وبين رواسب مرحلة الانحطاط.

فالوحدة انبعاث جديد يقاوم عوامل الضياع المتبقية من المرحلة السلبية السابقة، وقوى الطغيان والاستغلال والعنصرية، والعدوان على نهضة الشعوب، في عالمنا المعاصر.

وهي بناء لانسانية جديدة، تعمل من خلال ايمانها بمبدأ الحوار الحضاري على اغناء التطور الحضاري للبشرية. فالانسانية في منظور البعث، كما جاء في دستوره الأول: «مجموع متضامن في مصلحته، مشترك في قيمه وحضاراته. فالعرب يتغذون من الحضارة العالمية ويغذونها ويمدون يد

---

(٦٤) نضال البعث، الجزء السادس: القيادة القومية ١٩٥٥- ١٩٦٢، من تشكيل القيادة القومية حتى نهاية الانفصال، الطبعة ٢ (بيروت: دار الطليعة، [١٩٧١])، ص ٤٤- ٦٠.

الاخاء الى الامم الاخرى ويتعاونون معها على ايجاد نظم عادلة تضمن لجميع الشعوب الرفاهية والسلام والسمو في الخلق والروح».

ان التصور التطبيقي للوحدة، في مفهوم البعث، قد قام على أساس أن(٦٥):

«الدولة العربية المستقلة الواحدة تقوم على نظام لا مركزي» كما يشير الى ذلك الدستور التأسيسي للحزب.

«ان مفهوم (اللامركزية) يتحدد على اساس شروط الانتاج وحاجات البناء الاقتصادي والاجتماعي، وليس على اساس جغرافي يكرس التقسيمات المصطنعة»(٦٦).

ثم ان الوحدة العربية «يجب ان تكون وحدة كاملة في المراحل المتقدمة للنضال الوحدوي. ولكي تكون الوحدة حقيقية وكاملة، يجب أن يكون لها قيادة قوية وفعالة في الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية»(٦٧).

ان الصورة التفصيلية لهذه الوحدة، لم ترسم بشكل نظري سابق للتجربة لأن منهج فكر البعث العلمي الجدلي الثوري، يؤكد على ان «النضال الذي أوجد فكر البعث»(٦٨) هو الذي سوف يساعد على جلائها. فهي صورة تولد من خلال المعركة مع كل عوامل التجزئة وتحدياتها.

فالوحدة العربية (٦٩): «هي وحدة الشعب العربي. والنضال في سبيلها نضال شعبي. وصورتها المقبلة تولد وتتحدد بما يحمل نضال الجماهير العربية من تجارب ومعان تحررية انسانية».

## طـــريــــق الـــوحــــدة
## واستراتيجية العمل الوحدوي

* تشكل (استراتيجية الوحدة العربية) في منظور البعث، جزءاً اساسياً من (استراتيجية الانبعاث القومي المعاصر). وهي في موقع النواة منها. فالوحدة تتطلب من اجل تحقيقها تصوراً شمولياً عملياً (نظرية عمل) يربط الخطوات الوحدوية بالاهداف

---

(٦٥) نضال البعث، الجزء الأول: القطر السوري ١٩٤٣- ١٩٤٩، من معركة الاستقلال الى نكبة فلسطين والانقلاب العسكري الاول.

(٦٦) المؤتمر القومي لحزب البعث العربي الاشتراكي، السادس، ١٩٦٣، «المنطلقات النظرية لحزب البعث».

(٦٧) المصدر نفسه.

(٦٨) عفلق، نقطة البداية، ص ٢١٣.

(٦٩) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ٢٢١.

الانبعاثية للقومية العربية، من جهة، ويجعلها تنطلق من أرض الواقع الحي، ومن وعي للتركيب الاجتماعي لهذا الواقع، وللظروف القومية والعالمية، وللقوى الراهنة، ومن تقدير الظروف والامكانات، المستجدة والكامنة. وكذلك من اعداد لجيل الوحدة والانبعاث الذي يشكل طليعة النضال الوحدوي. فشعار البعث[٧٠]:

«امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، لا يرمز الى اشياء مقبلة بعيدة عن الواقع، بل يهدف بالدرجة الاولى، الى تلبية حاجات الحاضر وضروراته وهو يعني أن الأمة العربية واحدة، فلا تعترف بهذه التجزئة المصطنعة العارضة. واننا نسعى الى تحقيق هذه الوحدة ليس في الارض فحسب، بل ايضاً في الروح والاتجاه».

وقد كان التصور الشمولي لعملية تحقيق الوحدة مستنداً في فكر البعث الى أربعة حقائق اساسية وهي[٧١]:

١ـ ثورية المرحلة، وعقم الاعتماد على التطور والاصلاح الجزئي.

٢ ـ واقعية الثورة، وطابعها الاقتصادي واعتمادها على جماهير الشعب.

٣ـ وحدة الاهداف الثورية وتفاعلها: الوحدة والحرية والاشتراكية.

٤ـ شمول القضية، وترابط مصلحة الشعب العربي في جميع اقطاره وضرورة توحيد نضاله.

* ان تحقيق الوحدة، اذن، يرتبط في تصور البعث، قبل كل شيء بفكرة بعث الشخصية العربية الموحدة، وبالنضال الموحد.

فالوحدة العربية تتحقق أولاً من خلال الموقف النضالي الذي يوحد الوعي والشخصية مع المسيرة الموضوعية للأمة. اي من خلال عملية ولادة جديدة للأمة، تكون فيها المعاناة النضالية المخططة التي تستوعب حركة التاريخ ولا تقفز من فوق الشروط الموضوعية، هي المهاد الاساس لبدء انطلاقة المسيرة الوحدوية، فمن خلال الصراع بيننا وبين قدرنا، بيننا وبين انفسنا، نستكشف حقيقة امتنا الموحدة، ونخلق الاجيال الوحدوية التي تجسد صورة الوحدة في الحاضر، والتي تملك تصور الوحدة[٧٢].

«الجيل الجديد، لن يكون إلا بانفصاله عن الجيل القديم لا في الزمن الاصطلاحي، بل في الزمن النفسي والجوهر. . . الانفصال هو النظرة الصحيحة الى الاتحاد الصحيح. . . ففي حالة الازمات الخطيرة

---

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٩٨.
(٧١) المصدر نفسه، ص ٥٠.
(٧٢) المصدر نفسه، ص ١٥٥.

التي تتناول جوهر الحياة ينشأ بين الكم والكيف تناقض وتضاد، ويتميز العنصر الصالح بخلوه من العناصر الاخرى».

فهذا الجيل مطالب بأن يزرع المفهوم الوحدوي الثوري الجديد المنسجم مع حاجات النضال، في قلب الواقع، وأن ينضج خميرته في حياة الجماهير ونضالها اليومي، وأن يصنع الوحدة وهو يشق طريق التحرر من الاستعمار والاستغلال [٧٣].

* لا وحدة بدون حركة وحدوية تستوعب اهداف الانبعاث، وتعمل ضمن اطار المنظور الحضاري لمرحلة النهضة العربية. فالعنصر الارادي والتخطيطي، والمبادرة والاقتحام. . وكل ما يتطلبه العمل الثوري في أعلى مستوياته من شروط ومتطلبات، ينبغي أن يتوفر في النضال الوحدوي. لأن الوحدة[٧٤]:

«ليست عملاً آلياً تتم من نفسها نتيجة للظروف والتطور. بل هي فاعلية وخلق ومغالبة للتيار وسباق مع الزمن، أي أنها تفكير انقلابي وعمل نضالي».

فالنضال الوحدوي، يجب ان يكون على مستوى فكري علمي وحضاري، وعلى مستوى تنظيمي وتعبوي، كفيل بالسيطرة على الزمن. لأن[٧٥]: «النضال الصحيح الذي يكتب له النجاح هو الذي يعتمد على قوى الامة ويجمعها وينظمها. فاذا كان نضال الشعب العربي في سبيل بلوغ الاهداف القومية الكبرى، يصطدم بقوى هائلة من الرجعية الخارجية والداخلية، فإن الضامن الوحيد لنجاح هذه المهمة هو اعتمادها على القوى الحية في الأمة. فلا بد اذن من ان تنهض بهذه المهمة حركة واحدة، تتوصل الى توجيه هذه القوى بأسلوب واحد ونحو غاية واحدة».

والحركة الوحدوية، ينبغي أن تكون في تفكيرها وفي تنظيمها ومن تكوين اعضائها، وطبيعة الصلة بينها وبين القوى الاخرى، وبينها وبين الجماهير العربية، قائمةعلى اسس جديدة مناقضة لواقع التجزئة ولمنطلقها ونفسيتها ومصالحها. لأن «وحدة النضال لا تتحقق ما لم يمارس الشعب العربي نضال الوحدة»[٧٦].

* ان التصور، الذي يعتبر تحقيق الوحدة مرهوناً بالقوة الفوقية ، بالقوة المادية، بالقوة العسكرية، بقوة دولة من دويلات العرب، تستطيع ان تفرض سلطتها على الآخرين

---

(٧٣) المصدر نفسه، ص ١٧٦.
(٧٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٩.
(٧٥) نضال البعث ، الجزء الثاني : القطر السوري ١٩٤٩ـ ١٩٥٤، من الجمعية التأسيسية الى مقاومة الدكتاتورية العسكرية والاحلاف الاستعمارية، الطبعة ٣ (بيروت: دار الطليعة ، [١٩٧٣])، ص ٣١.
(٧٦) عفلق، معركة المصير الواحد، ص ٤٥.

وتوحد شتأتهم «تصور خالفه البعث لأن منظوره الوحدوي يتجه الى الأسس:

فلا يمكن تحقيق الوحدة العربية، حسب هذا المنظور تحقيقاً جدياً صامداً للزمن الا اذا حدث انبعاث روحي في المجتمع العربي، يصهر نفوس العرب من جديد، ويبدل ضعفهم قوة»(٧٧).

فالوحدة العربية هي نتيجة للانقلاب الروحي للمجتمع العربي، وهي ايضاً في الوقت نفسه سبب من اسباب هذا الانقلاب، ودافع مثير من دوافعه «فكفاح الشعب العربي في كل اقطاره يجب ان يكون موحداً. أي أن تكون له نظرة واهداف واحدة، وخطة عملية واحدة»(٧٨) فوحدة النضال العربي هي التعبير العملي عن فكرة الوحدة، وهي الخطوة العملية الاساسية الاولى في مسيرة الوحدة، وفي خلق عوامل الانقلاب الروحي في المجتمع العربي.

* ان الوحدة العربية في مفهوم البعث، هدف ثوري لا ينفصل عن القوة الثورية الحقيقية التي هي الجماهير الكادحة للشعب العربي، ولا يتحقق الا من خلالها. «فالسبيل الى توحيد الوطن العربي هو في ايصال الجماهير الشعبية الى حكم البلاد واستلام مقدراتها» لأن النضال في سبيل الوحدة العربية لا يكون واقعياً ومجدياً إلا أذا امتزج بنضال جماهير الشعب العربي في سبيل حقوقها الحياتية فليس للوحدة «ولا يمكن ان يكون للوحدة غير طريق واحدة طريق جماهير الشعب العربي. وكل انحراف عن هذا الطريق ليس هو انحرافاً بالوحدة عن الطريق السوي، بل سد للطريق في وجه تحقيقها. فالعرب اليوم ليسوا مخيرين بين وحدة شعبية تقدمية وبين وحدة تقوم على ايدي الملوك والاقطاعيين، بل هم مخيرون بين هذه الوحدة الشعبية التقدمية التي هي وحدها ممكنة التحقيق، وبين بقاء التجزئة التي هي نفي لبقائهم»(٧٩).

* ان مسيرة الوحدة مسيرة جدلية ومعقدة لا تخضع للتخطيط الجامد. فظروف النضال قد تفاجىء الخطط، والفرص التاريخية، قد تدفع الى اختصار الزمن(٨٠) «ان الواقع يختلف عن التصميمات النظرية، وواجبنا أن نحسن الاستفادة من كل ظرف على أفضل وجه ممكن. فالاخطاء لا تعزى الى الظروف وحدها، وانما الى الحركة نفسها التي تقود مسيرة الوحدة». فمفهوم البعث حول استراتيجية الوحدة، يرفض حرق المراحل، كما رفض الاستسلام للحتمية التاريخية. لذلك فإن استيعاب الشروط الموضوعية والذاتية للنضال الوحدوي، يشكل المدخل الرئيس لرسم الخطوات العلمية لتحقيق الوحدة.

---

(٧٧) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ٢٤١.
(٧٨) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.
(٧٩) المصدر نفسه، معركة المصير الواحد، ص ١٤٨، ١٧١.
(٨٠) المصدر نفسه، ص ٦٣.

وعلى هذا الاساس، اكد فكر البعث على ضرورة[٨١]: «الانتقال الى مرحلة أعلى وانضج في توحيد النضال العربي. وهذا يفترض خطة شاملة بعيدة المدى والنظر، تعالج الحاضر على هدى المستقبل الذي نسعى اليه، وتعيين المراحل والامور المستعجلة، والامور التي يمكن تأجيلها.. وهذا المستوى الجديد لا يتحقق إلا باعادة النظر في الاسس والنظم الاجتماعية الراهنة التي لا يمكن ان تعطي اكثر مما اعطت حتى الآن..» وهذا يعني الاعتمادِ على تنظيم قومي، يستوحي خططه من حاجات النضال الوحدوي ويستمد قوته من تأييد جماهير الامة، ومن تمسكه بالاسلوب الثوري المنسجم مع اهداف الامة. و الذي لا يفرق بين الوسيلة والغاية، لأنه ينظر الى الوسيلة باعتبارها «جزء متصل بالغاية ونابع منها. وانها ليست مجرد طريق تختاره للوصول الى الغاية، بل اشعاع من الغاية يعين لنا الطريق الموصل اليها»[٨٢]. وعلى ضوء ذلك يتبين أن وحدة الايديولوجية والستراتيجية والتاكتيك، في المسيرة الوحدوية، هي احد الاسس والركائز الهامة لنظرته نحو الجانب التطبيقي من مفهوم الوحدة.

فعندما طرحت فكرة الاتحاد بين سوريا والعراق عام ١٩٥٠، جاء بيان البعث في ١٩٥٠/١/٩، مؤكداً على: «ضرورة توفير ضمانتين اساسيتين للخطوة العملية الاولى نحو الوحدة العربية: اولاهما (قومية تحررية) والثانية: (تقدمية)، أي أن تكون الخطوة الوحدوية مقترنة بالتحرر والمحافظة على المكاسب المتعلقة بالاستقلال والسيادة وتطويرها. وكذلك جعل مقدرات الاتحاد بعيدة عن الطبقات الرجعية، والتمسك بالنظام الجمهوري واتجاهه التقدمي الاشتراكي»[٨٣].

وقد استند هذا الموقف الى عدة منطلقات استراتيجية رئيسية:

أ) ينبغي أن يرافق الوحدة، تقدم الشعب العربي نحو الحرية والاشتراكية.

ب) الحاجة الى التخلص من النظام الملكي والنظر الى النظام الجمهوري، كحاجة حيوية لتقدم النضال العربي.

جـ) اعتبار المجتمع الرجعي الاقطاعي، الذي كان السبب الاساس في هزيمة العرب في فلسطين، العائق الاكبر في طريق الوحدة.

* ان المرحلة الراهنة، في منظور البعث، هي بالدرجة الأولى «مرحلة تحرر قومي، ومعنى ذلك ان الاكثرية الساحقة، تستطيع أن تشارك في هذا النضال وتلتقي على اهدافه رغم اختلاف المصالح والاجتهادات. ولكن هذا الالتقاء على هدف التحرر، لكي يكون مخلصاً يجب ان يرافقه تحقيق جزئي

---

(٨١) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

(٨٢) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ٦٩

(٨٣) فرح، تطور الايديولوجية العربية الثورية، ص ٥٧ـ ٥٩.

لخطوات عملية في طريق الوحدة. فمرحلة التحرر مرحلة ثورية، ولكنها بداية ثورة وليست الثورة الكلية»(٨٤).

* وقد حدد المنظور الستراتيجي الوحدوي للبعث حقيقة العلاقة بين الاستعمار والصهيونية، وكشف عن النقص والانحراف، القائمين في النظرتين الشائعتين: (اليمينية) التي تركز على الصهيونية لتصرف الانظار عن الاستعمار. والنظرة المقابلة، التي لا تتحرى الدقة عندما تجعل من الصهيونية والاستعمار اسمين لمسمى واحد.

ذلك أن اسرائيل كيان صهيوني يعبر عن قوة الصهيونية العالمية، التي هي حركة استعمارية، ولكنها حركة مستقلة تستطيع أن تسخر الاستعمار نفسه. لذلك فإن نضالنا ضد الاستعمار يجب أن يرافقه نضال آخر ضد الصهيونية(٨٥). ومن هنا كانت مركزية القضية الفلسطينية، وكونها قضية عربية، وأنها تحتاج الى كل قوى الامة. وأن كل نظرة اقليمية، وحتى (الفلسطينية) نفسها، إنما تنطوي على خطر تحويل فلسطين من قضية قومية الى قضية جغرافية. «فالوحدة طريق فلسطين. كما ان فلسطين طريق الوحدة» لأن قضية فلسطين «ليس لها حل خاص، انها خلاصة القضية العربية في محنتها الحاضرة مع الاستعمار والصهيونية والرجعية. وتحريرها مرتبط بتحقيق الوحدة العربية»(٨٦).

* ان مسيرة الوحدة تحتاج في منظور البعث، الى عمل على مستويين رئيسين: المستوى الذي يتيح لها «تثبيت مفاهيمها ومقاييسها الثورية للوحدة». ثم المستوى النقدي. اي التوقف بين الحين والحين لمراجعة المواقف والاخطاء ومعالجة بقايا الغموض والارتجال، والعاطفية في التصورات الوحدوية. «وان نطلب دوماً المزيد من النقد الذاتي، وان نكون مستعدين للتصحيح اذا ظهر أي خطأ في خططنا وعملنا»(٨٧).

* ثم ان سير العرب نحو وحدتهم مرتبط، حسب منظور البعث، إرتباطاً وثيقاً بوجود القيادة المخلصة التي تؤمن بالعقيدة العربية الثورية، وتؤمن بالتنظيم الشعبي كأساس لبلوغ الاهداف، وعدم الاكتفاء بالعضوية الجماهيرية وبالعاطفة الشعبية الملتهبة غير المنظمة(٨٨).

كما ان حماية الوحدة، وتوفير الصمود لاية خطوة وحدوية، يتطلب ان نجعل تقدمية

---

(٨٤) نضال البعث، الجزء الثالث: القطر السوري ١٩٥٤-١٩٥٨، من معركة حلف بغداد والعدوان الثلاثي الى قيام الجمهورية العربية المتحدة، ص ٢٧٨-٢٨٣.

(٨٥) المصدر نفسه.

(٨٦) عفلق، نقطة البداية، ص ٨٣.

(٨٧) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ٢٩٤.

(٨٨) نضال البعث، الجزء الرابع: المؤتمرات القومية السبعة الأولى، ١٩٤٧-١٩٦٤، ص ٨٤.

الوحدة العربية حاسمة فاصلة كالسيف، لا تدع مجالاً للالتباس.. فلكي نكسب الشعب العربي، يجب ان نعرف بأن هذا الكسب له ثمن هو ان نخسر الرجعيين والاقطاعيين والمستثمرين من كل صنف(٨٩) لأن «الوحدة العربية لا يبنيها الا الكادحون»(٩٠).

* ان الوحدة العربيةلن تتحقق في منظور البعث، الا اذا كانت وحدة مقاتلة«وحدة مسلحة» وحدة حرب التحرير الشعبية، لأن طبيعة التحديات الامبريالية والصهيونية والرجعية، تفرض هذا المستوى وهذا الاسلوب في تحقيق الوحدة. فالوحدة هي طريق المعركة الشاملة مع تلك التحديات، طريق تعبئة قوى الامة، طريق الانتاج والابداع والقتال. لأن المعركة هي ساحة تحقق الوحدة وطريق نهضة العرب(٩١). فالامة في حالة النضال تستعيد مستواها الحضاري وتقف موقفاً متكافئاً مع الأمم المتقدمة، وتدخل الى قلب العصر، لأنها بالنضال، تسترد وحدتها العميقة.

وهكذا فإن هدف الوحدة لا يتحقق في نظر البعث، بغير الاتجاه نحو الشعب، والنضال في صفوفه بعنف وقوة وتنظيم يتناسب مع الصعوبات والعراقيل التي تقف في وجه الوحدة.

* لقد كان لحزب البعث العربي الاشتراكي دور تاريخي في تحقيق أول خطوة عمليةنحو الوحدة العربية. أي في تحقيق الوحدة بين سوريا ومصر عام ١٩٥٨. وقد استطاع ان يرافق تلك التجربة، وأن يحتفظ بموقفه الوحدوي، عندما وقعت الازمة نتيجة تضارب تصورين ونظرتين وخطتين، في معالجة علاقة دولة الوحدة بمسيرة الوحدة فكان تغليب (منطق الدولة) الذي حول الوحدة الى قطرية جديدة، على (منطق الثورة) الذي تمسك به البعث، سبباً في انفصال الوحدة عن دولتها، فأصبحت الوحدة بدون مضمون شعبي ديموقراطي اشتراكي حقيقي، تعيش ضمن اطار نظام (قطري موسع) يتسمى بالوحدة، وكان تمسك البعث بمنطلقه الوحدوي يدفعه الى التزام الموقع الوحدوي الثابت في نقده لتلك التجربة من اجل استخلاص دروسها ومحاولة تصحيحها من داخلها(٩٢).

«لئن وقعت اخطاء، فالوحدة أعمق من كل شيء، وهي قادرة على أن تصحح الأخطاء. والوحدة ما زالت تحتاج الى جيل يؤمن بها، يناضل من أجلها، يتابع رسالتها على الأسس الصحيحة، ولكي تكون وحدة متينة الأسس غير معرضة لأية انتكاسة.. ما زالت تحتاج الى جيل يؤمن بها، مناضل يخلق وعيها وينمي نضالها ويكافح عقلية التجزئة ورواسبها والمصالح الآنية للتجزئة».

---

(٨٩) عفلق، في سبيل البعث، ص ٢٩٢.
(٩٠) المصدر نفسه، نقطة البداية، ص ١٣٥.
(٩١) المصدر نفسه.
(٩٢) المصدر نفسه، في سبيل البعث، ص ١٨٤.

فقد كانت استراتيجية البعث لضمان حماية الوحدة وتطويرها، قائمة على التصور الشمولي لحاجات المعركة التي دخلت فيها الامة بعد قيام الوحدة. لأنها كانت التحدي المصيري لبقايا الوجود الاستعماري وللمخططات الامبريالية وللكيان الصهيوني. فهي لا بد ان تلتحم بمسيرة الثورة في الجزائر وفي العراق وفي سائر انحاء الوطن العربي. أي أن يكون لها تخطيط مستوعب لحاجات المعركة وقادر على تعبئة قوى الامة. وذلك بأن ينشأ (مجلس تخطيط ثوري)، مؤلف من القوى النضالية الاساسية في الساحة العربية، وخاصة قيادة البعث ومصر والجزائر، وأن تقوم دولة الوحدة بارساء قاعدة انطلاق قومية وحدوية تقود النضال العربي وتوحده وترفعه الى مستوى المواجهة المصيرية. وترسم خطوات، المعركة القادمة وتعد لها، أي ان تتحول الى (ثورة دائمة).

وعندما وقع الانفصال، وضع البعث استراتيجيته النضالية على اساس العمل من اجل (تجديد الوحدة) بين سوريا ومصر، ثم قام بانضاج مشروع ثلاثي للوحدة، بعد ثورة ١٤ رمضان ١٩٦٣ التي قادها البعث في العراق. الا ان المرحلة القومية دخلت في طور سلبي، تراجعت معه قضية الوحدة، لأن الانفصال كان مناسبة لجميع القوى المعادية للوحدة لكي تغرس مضادات للوحدة، تنتقل بالتجزئة الى مستوى أخطر من التردي، والمعاداة لتيار الوحدة، أي الى مستوى التفتيت والتفجير للقوى الوحدوية من داخلها. وقد كان للبعث من هذا المخطط نصيب كبير. ودخلت القضية العربية طور النكسة، مع دخول الجماهير والقوى الوحدوية سجن الممارسات القطرية والفوقية، المتعالية على الشعب.

* منذ أواخر الستينات، اتجهت استراتيجية البعث الوحدوية نحو ممارسة النقد والنقد الذاتي، ومراجعة دروس المرحلة السابقة. من خلال المؤتمرات القومية التاسع والعاشر والحادي عشر.

وقد قام البعث في هذا الاطار بعدة مبادرات ومساهمات، كطرح مشروع الوحدة المقاتلة مع سوريا ومصر عام ١٩٧٢، والدور الذي لعبه العراق في حرب تشرين اول/اكتوبر عام ١٩٧٣، على الصعيدين العسكري والسياسي بالاضافة الى ضرب المصالح الامريكية والهولندية. ثم المبادرات التي قام بها العراق للدعوة الى مؤتمر للقمة والى ميثاق للعمل القومي، يتصدى لمؤامرة تصفية القضية الفلسطينية وعزل مصر عن الامة العربية. كل ذلك يأتي ضمن منطق (الرد التاريخي على المؤامرة) الذي عبر عنه الاستاذ عفلق في كلمته في الذكرى الثالثة والثلاثين لتأسيس الحزب:

«ان حتمية فشل المؤامرة على فلسطين وعلى الامة العربية وقضيتها المصيرية، لها تعبير وحيد: هو تحقيق الوحدة».